مدخل

بقلم: ديفيد إغناتيوس

التقيت جاكي سبنر للمرة الأولى في 1994 حين كنت في رحلة تجنيد لمقابلة عاملين متفرغين محتملين لموسم الصيف في **الواشنطن بوست**. كنت قد توقفت في بركلي ورحت أتحدث مع عشرات من المرشحين التواقين، الموهوبين. واحدة تأخرت مدة خمس عشرة دقيقة عن موعد المقابلة. عبرت عن الأسف، إلا أنها أفادت بأنها انشغلت بأمر أكثر أهمية ـ كانت تكتب تقريراً صحفياً، تنجز قصة. تلك كانت جاكي.

أحياناً يراودك إحساس معين حول شخص معين ـ تكون شرارة الموهبة والرغبة شديدة القوة إلى درجة تضطرك لوضع كتاب القواعد جانباً. لدى قراءة مقتطفات من كتابات جاكي وإصغائي إلى كلامها عن الصحافة شعرت بأنها قد تكون شخصاً من ذلك النمط. كان واضحاً، حتى من كتاباتها الطالبية، أنها مرتبطة غريزياً بالقصص. وصفت لي سلسلة مقالات كانت قد ألفتها في الصيف السابق عن عصابات الأحداث في سان دييغو، وأوضحت أنها كانت قد عاشت في الشوارع عدداً من الأسابيع توخياً للوقوف على الحقائق. بدا أن ذلك هو المطلوب في **البوست**. وحين عدت إلى واشنطن طلبت من زملائي بإلحاح منحها إحدى فرصنا الثمينة، وما إن تم اتخاذ القرار الأوَّلي بالموافقة على طلبي حتى انخرطت في أساليب المداهنة والتملق إلى أن انتزعت أمر الاستخدام بمنح جاكي أحد الشواغر.

أعوام جاكي الأولى في **البوست** لم تكن سعيدة دائماً. من الحقائق المؤسفة أن **الواشنطن بوست**، كغيرها من الصحف الكبرى الكثيرة، قد تكون مكاناً

شديد الازدحام بالنسبة إلى أي مراسل شاب. ثمة كثرة مفرطة من البطاقات المطلوب خرزها ومن المحررين المطلوب إرضاؤهم وخَطْبُ ودِّهم مما قد يفضي إلى فقدان الرغبة الملتهبة التي جعلت المرء راغباً في أن يصبح صحفياً في المقام الأول. بدت جاكي شديدة التعطش للقصة التي تجلت بوضوح ساطع ذلك اليوم في بيركلي فتمسكت بها. ربما كانت تنتظر قصة ترقى إلى مستوى موهبتها من حيث الإثارة والغنى بالعواطف.

ما لبثت جاكي أن اهتدت إلى تلك القصة في العراق. بداية ذهبت إلى هناك بما يشبه الصدفة، غير أنها سرعان ما تميزت بآيات الشجاعة، الحيوية، والشعور الإنساني والصدق التي كانت تحرك تغطيتها للأحداث. واصلت بقاءها في العراق شهراً بعد آخر. في اليوم الذي كادت تتعرض فيه للاختطاف خارج سجن أبو غريب، توسلت محرريها ملتمسة عدم إجبارها على العودة إلى أمريكا. كانت الحرب ومشاعرها المكثفة قد توغلت في دورتها الدموية. أنا أعرف ذلك النوع من الإحساس لأن الحرب تسللت إلى ما تحت جلدي، أنا أيضاً، وبقيت مولعاً بالعودة المتكررة مرة بعد أخرى لكتابة الأعمدة والزوايا عنها. إن العراق قصة ملهمة، حاطمة للقلب. لا أعرف أحداً أحس بقصة العراق وملحمته كما فعلت جاكي، كما لا أعرف أحداً عبرت عن الأمل واللوعة كما فعلت جاكي هنا.

كما سيرى قراء هذا الكتاب، فإن جاكي قد ألفت قصة حب. إنه سجل التزامها الحماسي بالناس المورطين في هذه الحرب ـ مدنيين عراقيين وجنوداً أمريكيين على حد سواء. إنه يعبر عن حبها لزملائها ـ خصوصاً للعراقيين الشجعان الذين يعملون في مكتب **الواشنطن بوست** ببغداد ممكِّنين إيانا من مواصلة العيش وأداء الوظيفة. دَرَجَتْ جاكي على إمتاعهم بخَبْز الحلويات، قضى أول أوامرها بأن يبادر الجميع إلى ركوب الأرجوحة الموجودة في الباحة الخلفية نشداناً للاسترخاء. في هذه الصفحات سوف تتعرفون على طباخينا، حراسنا الشخصيين، سائقينا، ومترجمينا ـ وسوف تتفهمون لماذا باتوا أشبه بأعضاء في

أسرتنا، بنظر أولئك الذين أمضوا وقتاً في بغداد منا. آمل أن يصبح كل من عمر، أبو سيف، فلاح، نصير الصغير، وسواهم من العاملين الرائعين في مكتبنا البغدادي، كما لو كانوا أعضاء في أسركم أنتم أيضاً.

إنها قصة حب عن الصحافة قبل كل شيء. يتعين على كل من لديه ذرة شك كلبية حول وضع الصحافة الأمريكية أو بشأن مدى التزام إعلامييها برسالتهم أن يقرأ حكاية جاكي. إنه العمل الذي خُلقت من أجل القيام به. إنها فتاة كادحة من ذوات الياقات الزرقاء من الغرب الأوسط تكتب من القلب. مهما كنت تظن أنك مطلع على شؤون العراق وشجونه فإنك سوف تعدل الصورة التي لديك بعد رؤيتك لذلك البلد المعذب عبر عيني جاكي سبنر.

لمحة من المؤلفة

ليس هذا الكتاب إلا رواية شخصية لقصة ما يزيد على تسعة أشهر أمضيتها في العراق مراسلة **للواشنطن بوست**. فبعد زيارة قصيرة للعراق في كانون الثاني/يناير 2004، منخرطة في سلاح مهندسي الجيش الأمريكي، عدت ثانية في أيار/مايو، واصلة بعد عثور دورية جنود أمريكيين روتينية على جثة رجل الأعمال الأمريكي نك بيرغ مقطوعة الرأس على أحد معابر الشارع الرئيسي إلى الغرب من العاصمة العراقية بثمانية أيام. شكل إعدامه الشنيع المصور على شريط الفيديو بأيدي المتمردين ـ مضافاً إلى موت أربعة متعاقدين أمريكيين عُلقت جثتهم المقطعة فوق جسر مدينة الفلوجة قبل شهر واحد ـ ما أصبحنا الآن فقط ندرك أنه كان انحداراً سائباً إلى نفق مظلم يطفح دماً وعنفاً. سيكون الخروج من هذا السرداب أمراً بالغ الصعوبة.

خلال المدة التي قضيتها في العراق، أدى الوضع الأمني المتدهور إلى تغيير أسلوبنا في تغطية الأخبار، ناسفاً كل تقاليد التغطية المألوفة وفي صراع لم نكن فيه، نحن الصحفيين، محصنين، لم يكن ثمة أي راية بيضاء تحمينا من السيارات المفخخة، من قذائف المورتار، من نيران المدافع الرشاشة، ومن عمليات الاختطاف. فالأشرار كانوا يستهدفوننا نحن أيضاً. ومع حلول خريف 2004 كنا، ونحن قابعون في الملاجئ المحصنة ببغداد، قد أصبحنا شبه مقطوعين عن باقي البلاد، عاجزين عن السفر إلى أمكنة كثيرة من العراق دون مرافقة وحدات الجيش الأمريكي بسبب خطر تعرض المراسلين الأجانب للهجوم. غير أن مهمتنا لم تتغير قط: كان العراق قصة يجب أن تُروى.

تحدثت عن السيارات المفخخة وعمليات إعادة بناء محطات الطاقة، كتبت قصصاً عن جنود في معارك، عن جنود ينتظرون المعارك، عن جنود يموتون في

المعارك. قابلت مئات العراقيين، أحياناً حتى دون مغادرة الفندق. التقيتهم عبر الملاحظات المخربشة لدى مترجمينا العراقيين. حين كان هؤلاء يعودون من مهمة أخطر من أن ينفذها أحد الغربيين كنا نجلس معاً أمام كومبيوتري وأستجوبهم عما رأوه. **ما كان لون عينيه؟ هل قال ذلك فعلاً؟ كيف تفوه بذلك؟ ما الذي تعنيه حين تقول: "بدا قلقاً"؟ قل لي كيف بدا! هل كان يتعرق؟ ماذا كانت يداه تفعلان وهو يتحدث؟**

سألت كلاً من العاملين العراقيين فردياً عن طريقة التعريف به في هذا الكتاب لأنه يبقى معرضاً للخطر جراء كونه يعمل لدى شركة أو مؤسسة أمريكية. وعلى الرغم من أن الأسماء الكاملة لمترجمينا منشورة مع عناوين زوايا وتقارير **الواشنطن بوست**، فإن من شأن ربط هذه الأسماء بمعلومات إضافية عن أسرهم أن يعرضهم لقدر أكبر من الخطر. بالنسبة إلى الكتاب طلب أكثرهم أن يشار إليهم بأسمائهم الأولى أو بلقب عربي شائع للأمهات والآباء: إذا كان الابن علياً فأبوه أبو علي وأمه أم علي. أحاديثنا هي كما أتذكرها تماماً، كما هي مفصلة في الكتاب. جميع الناس حقيقيون، ليسوا شخوصاً من نسج الخيال. إنهم موجودون لحماً ودماً، نعم دماً ولحماً، مجسدين قصة العراق المفعمة بالحياة. إنني مدينة لهم بكل شيء.

لم يسبق لي أن سبحت قط في بغداد على الرغم من أن المسبح في فندق شيراتون عشتار كثيراً ما راودني في أيام لاهبة لا تُطاق حين كانت الطبيعة الأم تبدو وكأنها قامت بتشغيل مئات مجففات الشعر في جو كالجحيم. صحيح أنني ذهبت مرة إلى مسبح الشيراتون بعد أن خيم الظلام بوقتٍ طويل. زميلتي في **البوست**، روبن شولمان، وأنا ما إن جلسنا على حافة بركة السباحة حتى خرج ستة أو سبعة من العاملين في الفندق مرتدين قمصاناً بيضاء مبلله بالعرق وسراويل داكنة لمراقبتنا من خلف حواجز رصيف المسبح. كانوا يشهقون بدخان سجائرهم، فيضاء الليل المدلهم بنقط الوميض الناري الشبيهة بالحشرات

الفسفورية المتطايرة. حاولنا، روبن وأنا، أن نتجاهلهم، غير أننا ما لبثنا، بعد فترة من الزمن، أن غادرنا المكان لحرمانهم من متعة اختلاس النظر الرخيص إلى رُكَبنا العَظْمية وأكتافنا العارية. مررنا بأوجههم المحبطة وعدنا إلى الاختفاء في جوف الفندق القذر، إلى ملابسنا ذوات الأكمام الطويلة والذيول المديدة.

ومنذ ذلك الوقت وصاعداً، كانت السباحة الوحيدة التي أمارسها هي تلك التي كانت تتم في مسبحي الخيالي. كنت أستحضر الصورة تخفيفاً لوطأة الرعب المصاحب للوجود في منطقة حرب. من المحتمل أن يكون أي صحفي يزعم أن الوجود في العراق ليس مرعباً كاذباً. غرقت في بركتي في أثناء هجمات المورتار، متدلية في بئر السلم فيما كان الفندق يرتج جراء الانفجارات المتكررة. حصل ذلك في أثناء معركة مدفعية في الفلوجة. تكرر الأمر لدى صعودي إلى سيارة وانطلاقي مع سيل حركة المرور، شاقة طريقي بين سلسلة من السيارات المفخخة المحتملة، متجاوزة معشر المتمردين الدائبين على مطاردة الأجانب لاختطافهم طلباً للفدية أو لما هو أسوأ. فعلت ذلك كلما انطفأت الأنوار، عندما توقفت قافلتي العسكرية فجأة منتصف الليل، حين حط الصاروخ في قلب مقهى الإنترنت بمعسكر مشاة البحرية بعد دقائق قليلة من مغادرتي للمكان. حصل الأمر أيضاً كلما رأيت جنوداً جرحى أو قتلى، كلما رأيت عراقيين جرحى أو قتلى، كلما حملت دماءهم على حذائي إلى البيت.

ليس العراق مرعباً كل الوقت. لم أكن أشعر بخطر وشيك في كل دقيقة من دقائق ساعات اليوم أو حتى في كل الأيام. بدا لي الأمر كما لو كان خطراً يمكن التعامل معه. كنت أقول إنني سأعود إلى الوطن عندما يتغير الوضع مدركة تماماً أن العراق كان يصبح أشبه بالوطن كلما أطلت البقاء فيه، فتصبح العودة أكثر صعوبة. أصبحت عاشقة للعراق، لهذا المكان المخيف، المرعب، العنيف، الجميل، المفعم بالأمل، حيث كان عدد كبير من العراقيين يشعرون، رغم أهوال التمرد، بأنهم أفضل حالاً بعد زوال حكم صدام، أفضل حالاً بوجود القوات الأمريكية

على أرضهم. عشقت قصة العراق والتصميم على إيصالها. اكتشفت معنى في أولئك الذين التقيتهم، أولئك الذين تكشفت حيواتهم على أطراف أصابعي. لم أشعر بأن حياتي توقفت عندما كنت في العراق. لقد كانت تلك حياتي حقاً.

في ساعات متأخرة من الليل كنت أخبز الحلويات لأبقى متيقظة انتظاراً لقطع رؤوس متعهدين أجانب: حرفياً قاتلةً الوقت انتظاراً لموت آخر. كنت مقتنعة بأنني إذا أرسلت إلى عناصر الشرطة الأغرار الذين يحرسون الفندق حلويات مخبوزة على نحوٍ منتظم، فإنني سأسمعهم، لدى مجيء المتمردين وقيامهم بصفنا، يقولون:"أطلقوا سراح الصغيرة. كانت تصنع لنا الحلويات."

بين قصة وأخرى، كنت ألعب كرة القدم حافية القدمين في ممرات الشيراتون النتنة، القذرة المغطاة بالسجاد. أماسي أيام الجمعة كنت أعد الطعام وأدعو إلى العشاء أعداداً من الصحفيين الغربيين والعراقيين لتناول ما تيسر لي تقديمه في خلائط تمكنت من توفيرها بالمواد المحدودة المتوفرة في السوبرماركتات العراقية. كنا نتناول وجبات عشاء إيطالية، كوبية، مكسيكية، بل وحتى تايلاندية. وبعد العشاء كنت أجلي الصحون في حوض الحمام. كنت أنتظر هذه اللحظات بفارغ الصبر، إذ كانت واحة فرحي، جاسرة خط حياة بين ساعات إرسال الرسائل والكتابات الطويلة، يوماً بعد يوم، أسبوعاً بعد أسبوع، شهراً بعد شهر. بطريقة ما، كنت بالغة الحيوية حين كنت أجدني دائبة على إلحاق الهزيمة بالموت من جهة وعاكفة في الوقت نفسه على السعي لاكتشاف الحقيقة من جهة ثانية.

تلك هي ثنائية الحياة اليومية في بغداد، حيث البقاء على قيد الحياة يعني الحفاظ على العقل والإبقاء على الوضع الطبيعي تماماً بمقدار ما يعني الاستمرار في العيش. كنا نوصي على البيزا من كوخ البيزا القريب ـ وجبات واصلة إلى الفندق على الدوام لأن مغامرة الذهاب إلى المطاعم أواخر صيف

2004 كانت شديدة الخطورة بالنسبة إلى المراسلين الأجانب كما كان الظهور معنا شديد الخطورة بالنسبة إلى العاملين العراقيين. كنت أمضي ساعات لا تعد ولا تحصى وأنا أبحث عن البدائل المناسبة لجبنة الريكوتا لجعل وجبة المعكرونة مثالية. حفظت عن ظهر قلب الخرائط الداخلية لبقالياتي المفضلة بما كان يمكنني إذا تعذر ذهابي شخصياً تجنباً للخطر من رسم خارطة المخزن وبيان المكان المحدد بدقة لمعلبات البقول المطبوخة الخاصة بالنباتيين. (تماماً قبل الممر الثاني، على الرف اليميني حيث العلب المعدنية المغطاة بالغبار. من الواضح أن البقول المطبوخة الخاصة بالنباتيين لم تكن كثيرة الرواج في بغداد).

في الوقت نفسه، هناك في الوطن بواشنطن، كانت شقيقتي التوأمة، جني، مشغولة بالاستقرار في وظيفة جديدة ومنزل جديد على مسافة خمس عشرة دقيقة من شقتي الفارغة. على امتداد أعوامنا الأربعة والثلاثين، لم نفترق، جني وأنا، إحدانا عن الأخرى لأكثر من بضعة شهور دفعة واحدة. ظلت أختي على الدوام هويتي، النصف الآخر لتوأمتَيْ سبنر. ازددنا قرباً في الكلية، مدركتين للمرة الأولى معنى الغياب لدى انطلاقنا إلى الطرفين المتعاكسين لولاية إيلينوي لمتابعة دراسة اختصاص الكتابة نفسه. درجنا على الاتصال ببعضنا لدى الشعور بالوحدة والنظر إلى القمر من نافذتَيْ غرفتَيْ نومنا، لحظة الميوعة والفراغ تلك المسروقة من أحد أفلام ديزني.

بوصفي توأمة لم يسبق لي قط أن شعرت بالوحدة. إلى هذا اليوم ليست لدي أي فكرة عن مثل ذلك الشعور. باستمرار كنت متمتعة بوجود رفيقة روح، بوجود إنسانة تتردد أصداء أفكارها في داخلي قبل أن تولد كلمات. غريزياً أعرف كيف تحس، وهي تعرفني أفضل من أي كائن آخر.

حين كنا في الثامنة من العمر تقريباً سبق لنا في ساعة متأخرة من إحدى الليالي، معاً في وحدتنا، أن تصورنا أسوأ السيناريوهات لحالنا. كان رجل مدجج

بالسلاح سيطلق النار علينا كلينا. تساءلنا عمن ستموت أولاً وأي الأمرين سيكون أسوأ: أن تكوني الأخيرة، الباقية، الغارقة في الحزن والأسى، أم أن تتركي الأخيرة، باقية غارقة في الحزن والأسى؟ ببساطة لم نكن قادرتين على تصور الحياة إحدانا دون الأخرى. ظللنا نناقش هذا السيناريو إلى سن متقدمة بعد الرشد دون الاهتداء إلى جواب. السيناريو بمخاوف أكثر واقعية كالسرطان وحوادث السير ـ إلا أن الحرب لم تخطر ببال أي منا على الإطلاق.

قبل المغادرة إلى العراق قالت جني إنها لن تشعر بالفرح ثانية إذا ما أصابني مكروه. تلقفت صوتها وتمثلت كلامها؛ خَزَّنْتُ تلك الكلمات في داخلي وانطلقت إلى رحلة عمر، إلى رحلة تغوص في قلب الحياة.

ذهبت وحدي.

قل لهم: أنا لم أبكِ

دليل موجز لأي

امرأة أمريكية في العراق

١- بالغي في الإكثار من أحمر الشفاه! النساء العراقيات الحديثات يعشقن الشفاه المكتنزة المصبوغة باللونين الأحمر والأرجواني الغامقين.

٢- تعاملي مع الحلي الفضية بدلاً من الذهبية. العراقيات يفضلن الذهب.

٣- لا تبوحي بالفرح. العراقيون يعانون.

٤- إياك أن تشربي من قارورة الماء مباشرة حتى إذا كانت درجة الحرارة تصل إلى الخمسين في الخارج وأنت موشكة على الموت عطشاً. انتظري الوصول إلى البيت وصب الماء في كأس مثل عراقية محترمة.

٥- لدى السير في الشارع إياك أن تحدقي في عيني أي رجل. سيظن أنك بائعة هوى.

٦- ارتدي قمصاناً ذات أطوال تكفي لتغطية مؤخرتك. ليس الهدف إلا التصرف مثل سيدة محترمة دون أن تبدي كذلك في الحقيقة.

٧- ابتاعي محفظة نقود من الطراز الذي كانت جدتك تحبه وعلقيها بذراعك تماماً كما كانت تفعل.

٨- أنت نباتية؟ يا للحماقة! كلي سيخاً من الكباب!

٩- إذا دعيت إلى الشاي، اشربيه وإن لم تكوني عطشى أو مرتابة من مصدر الماء. لا أحد إلا الأمريكيون الأفظاظ يرفض تلبية الدعوة إلى تناول الشاي. عليك، في الحقيقة، أن تقبلي أي شيء يُقدم إليك.

١٠- إذا كنت عازمة على الاختفاء تحت غطاء للرأس، فتأكدي من أنك دسست كل الشعر فيما تحت القماش.